# سمات الحكم الزنكي
# في عهد نور الدين محمود
## (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٤م)

الدكتور إبراهيم بن محمد بن حمد المزيني
**قسم التاريخ والحضارة - كلية العلوم الاجتماعية**
**جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

## مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، أمابعد:

فقد تميز الحكم في الدولة الزنكية في عهد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦ - ١١٧٤م)[1] بعديد من السمات البارزة، التي ميزت الدولة عن كثير من الدول المعاصرة لها كالدولة الفاطمية في مصر، ودولة الأتابكة في الموصل، وهي سمات تدعو للتعرف عليها، والتوقف عندها وتحصيل دروسها، لما شكلته تلك السمات من تطور ورقي في مختلف جوانب الحياة التي عاشتها الدولة الزنكية، رغم الأوضاع العامة والظروف التي عاصرتها تلك الدولة، ولما تشكله تلك السمات مجتمعة من تأثير عميق ومباشر في اتجاهات المجتمع وتكوينه على أسس سليمة، وفي بناء الدول والمجتمعات المتحضرة قديماً وحديثاً.

وشخصية نور الدين - رحمه الله - من الشخصيات القيادية الفذّة، إذ إنّه لم يكن حاكماً عادياً، بل كان يمتلك نظرة قيادية استراتيجية في بناء الدولة التي قدر له أن يحكمها، في ظل ظروف معينة عاش فيها، حتى تصبح هذه الدولة قادرة على تحمل أعباء هذه المرحلة، ومن أهمها الجهاد ضد الصليبيين، فبدأ بخطة بناء الدولة من جميع جوانبها الإدارية والعمرانية والثقافية والسياسية وفق أسس متينة، وثوابت راسخة. وهذا ما يمكن أن يعبر عنه بسمات الحكم التي تميزت بها حكومته عن غيرها من الحكومات. وهذه السمات والمزايا هي مدار الدراسة والبحث في هذا الموضوع.

ومما يشار إليه هنا أنني ببحثي هذا لم أكن وحيداً في دراسة شخصية نور الدين محمود، ولم أسبق غيري إليه، فقد عقدت عنه دراسات واسعة

ومتميزة قديمة وحديثة[٢] وقد أفاد البحث منها كثيراً وسجلت إحالاتها في هوامش البحث إلا أن صلة دراساتي السابقة بهذا المجاهد جذبتني إلى الإسهام ولو بشي يسير في تجلية بعض جوانب شخصيته، وجاء هنا دور سمات الحكم التي تميز بها عهد نور الدين محمود، والتي كان لها أثر في الحياة العامة في الدولة، وإن كان في البحث جديد، فهو في جمع هذه السمات في بحث واحد ومعالجتها بهذا الأسلوب الذي ركّز على المصادر الأولية للبحث مع إيراد كثير من نصوصها في مناسبتها.

وإذا كانت متطلبات البحث تقتضي استعراض تلك السمات متتالية واحدة بعد الأخرى، فإنه لابد من الإشارة هنا إلى أنها كانت أجزاء في خطة شاملة متكاملة خططت لها تلك الدولة، ونفذتها في عصر نور الدين محمود. وهو ألمع قادتها وأبرزهم، وأنها كانت تنمو بمجموعها وتتسع دوائرها باتساع الرقعة الجغرافية للدولة الزنكية، وبامتداد عمرها الزمني.

**وكانت أبرز تلك السمات والمزايا تتمثل في النقاط الآتية :**

**أولاً - إعداد الأمة إعداداً إسلامياً :**

اعتبرت الدولة الزنكية الإنسان المسلم هو الدعامة الأساسية التي يقوم عليها بناء الأمة الإسلامية. ومن أجل ذلك التزمت الدولة خطة شاملة لإعداد الناس إعداداً إسلامياً، وضمن هذه الخطة عمدت الدولة - وفي عصر نور الدين محمود - إلى تشجيع إنشاء المؤسسات والهيئات التثقيفية والتعليمية التي ركزت اهتماماتها على تربية الأجيال الناشئة بالدرجة الأولى، واشتملت تلك الخطة على التوجيه والإرشاد الذي استهدف عامة الشعب كما اشتملت على إعداد الشعب عسكرياً واستهدف تعبئة قوى الأمة عامة لمواجهة الأخطار والتحديات القائمة[٣]

أما من جهة تشجيع الدولة على إنشاء المؤسسات والهيئات التعليمية، فقد اتفقت مصادر ذلك العصر[٤] على أن الروح السائدة هي روح الثقافة والعلم وأن الملوك الزنكيين قد شجعوا العلم وعززوا مكانه في البلاد التي حكموها حتى إنه لم يكن يضاهيهم في عصرهم من هذه الناحية حكومة أخرى.

وقد بذلوا للعلماء ثمن علمهم بكرم وسخاء وشيدوا لهم المدارس والمعاهد، فوفد العلماء من كل قطر وناحية إلى بلادهم ويكفي للدلالة على ذلك ما ذكره ابن الأثير عن نشاط نور الدين محمود في ذلك، ومنزلة العلماء عنده حيث يقول في معرض كلامه عن أعمال نور الدين: «وبني أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له منذ تقع عينه عليه ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه، وكذا أيضاً كان يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عنده للبحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشاسعة، من خرسان وغيرها. وبالجملة فكان أهل الدين عنده في أعلى المنازل وأعظمها»[٥].

وقد بلغ العلماء درجة عالية في دولة نور الدين أوغرت صدور بعض أمرائه، فبدؤوا يحسدونهم على ذلك، ويحاولون النيل منهم في مجلس نور الدين، ويقعون فيهم عنده فينهاهم نور الدين عن ذلك، وكانوا إذا ذكروا عن أحدهم عيباً يقول لهم: ومن المعصوم، وإنما الكامل من تعدّ ذنوبه[٦]. يذكر ابن الأثير أن بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي، وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير ونال منه يوماً عند نور الدين، فقال له: ياهذا، إن صح ما

تقـول فله حـسنة تغـفـر كل زلة تذكـرها، وهي العلم والدين، وأمـا أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أتحمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أتحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنته، على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينك، فكفّ عنه. ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله: «هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب»(٧).

ولم يكن التعليم في العهد الزنكي مجرد نشاط أكاديمي يهدف إلى توفير احتياجات الدولة من الموظفين وأصحاب المناصب الإدارية، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً تربوياً وعقائدياً استهدف إعادة صياغة الفرد المسلم بما يتفق وأهداف الدين الإسلامي الحنيف(٨).

ولقد بلغ الاهتمام بالتعليم أَوْجَهُ زمن السلطان نور الدين محمود الذي ذكر ابن الأثير عنه أنه: «كان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب بل الإنصاف سجيته في كل شيء وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر»(٩).

وقد برز اهتمام نور الدين محمود بالناحية العلمية في عهده بروزاً واضحاً وجلياً دون غيره من ملوك الزنكيين حيث أدى اهتمامه بالعلم واحتضانه مراكز التعليم المختلفة، وتوسعه في إنشاء المدارس ودور التعليم الأخرى إلى أن يعرف بذلك بشكل بارز، فلقد أولى علماء السنة على اختلاف مذاهبهم وتخصصاتهم كل رعاية واهتمام ولم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء وطلاب العلم عليه، وترددهم على بلاده. على أن إنشاء دار السنة لتدريس الحديث النبوي يعد من أبرز معالم الحركة العلمية في عهده،

وبخاصة دار الحديث النورية بدمشق التي تعد الأولى من نوعها في الإسلام، والتي انتقلت فكرتها إلى كثير من مدن العالم الإسلامي وكان من أبرز نتائج هذا العمل نشر المذهب السني والوقوف في وجه المذهب الشيعي الذي كان انتشاره واسعاً في بلاد الشام، إضافة إلى أثر هذه المراكز في توجيه عامة الشعب لمواجهة الوجود الصليبي في المنطقة عن طريق التركيز على دراسة أحاديث الجهاد وفضائله والحث عليه، وتحميس الناس وتهيئتهم للجهاد[10].

كما كان من آثار نور الدين في مجال التعليم توسعه في إنشاء المدارس السنية على مختلف المذاهب، وتقدير المعاليم والرواتب للصرف على المدرسين والطلاب والعاملين فيها، هذا إضافة إلى إنشاء العديد من مراكز الصوفية (الخوانق والربط والزوايا) وكذلك البيمارستانات في كثير من المدن الزنكية، كما حرص على رصد الأوقاف السخية الدارّة لضمان استمرار تلك المؤسسات في القيام بوظائفها المنشأة من أجلها هذا إلى جانب حرصه الشديد على إنشاء المكتبات المتخصصة داخل هذه المراكز لرجوع الرواد إليها والاستفادة منه كل حسب تخصصه.

وقد أوجز نور الدين سياسته التعليمية هذه بقوله على لسان المؤرخ أبي شامة المقدسي: «نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين»[11].

من أجل ذلك شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً علمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض[12]. «حتى إن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقراء والصوفية لصرف همته

إلى بناء المدارس والربط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم» كما يذكر أبو شامة[١٣].

وإلى جانب ما ذكر عن انتشار التعليم وتوجيه عامة الشعب توجيهاً فكرياً نجدأن الدولة الزنكية نشطت في إعداد كافة الشعب إعداداً عسكرياً بالتدريب المتواصل، ولقد بلغ الاهتمام بالناحية العسكرية أوجه زمن نور الدين محمود الذي كان يدرك أهمية تلك الناحية لعلمه جيداً بطبيعة العصر الذي قدر له أن يتولى إحدى قياداته المهمة، ويقف على ثغر من ثغوره المتقدمة وقد تزايدت عناية نور الدين بالتربية العسكرية حين ضم دمشق إلى ملكه سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) ونقل عاصمته إليها فقام بتأليف كتاب عن الجهاد[١٤]. وأقام بساحتها ميادين للتدريب العسكري.

لقد تسلم نور الدين القيادة مجاهداً من الطراز الأول وطبق معنى الجهاد بمفهومه البعيد العميق الذي يطبع أخلاق المقاتل، وفكره، وعاطفته وإرادته، وتكوينه النفسي على السواء، وهو يذكرنا هنا بنماذج المجاهدين الذين تربوا على القرآن الكريم تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففتحوا العالم وأسقطوا تيجانه وعروشه وغيروا خرائطه[١٥].

وقد كان هذا التكوين الجهادي المتميز عاملاً من عوامل الانتصار الذي حققه نور الدين[١٦]. ومن بعده صلاح الدين في صالح الجبهة الإسلامية، وتمكنوا من خلاله من تأسيس قاعدة عسكرية قوية أفادت الجبهة الإسلامية كثيراً في مواجهاتها المستمرة في المنطقة مع الصليبيين حتى تم تطهير المناطق الإسلامية من وجودهم وتمت تصفيتهم نهائياً على أيدي سلاطين المماليك فيما بعد.

لقد كان نور الدين محمود مولعاً برياضة الفروسية، وضرب الكرة[١٧].

لدرجة تفوق الوصف كما يقول معاصره العماد الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) إلى درجة أنه كان يأمر بإضاءة الشموع، إذا داهمه الليل[١٨]. وكان كما يصفه ابن الأثير «من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، لم يُر جوكانه يعلو على رأسه، وكان ربما يضرب الكرة فتعلو، فَيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب»[١٩].

وقد فسر ممارسته الرياضة تفسيراً رائعاً في جوابه على معاتبة أحد الزهاد له عندما كتب إليه يقول: «ماكنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية. فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له: والله ما حملني على اللعب بالكرة، اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاءً وصيفاً، إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَماماً[٢٠]. لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف، والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة»[٢١].

ومن المهارات التي يتقنها نور الدين أيضاً مهارة الصيد، وهي رياضة تجمع بين الجد والمتعة البريئة، وليست هذه المهارة سوى محاولة من بين عديد من المحاولات التي تمارس لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان[٢٢].

وقد سجلّ لنا أسامة بن منقذ في مذكراته التي جمعها في كتابه الاعتبار

كثيراً من مشاهد الصيد التي رافق بها نور الدين، وهي مشاهد ممتعة تؤكد حرص الرجل، وإتقانه لهذه الرياضة[٢٣].

هذا وقد استمر النشاط التعليمي والتوجيه التربوي والتدريب العسكري يجري بإشراف الدولة الزنكية حتى تبدلت البنية القديمة لمجتمع بلاد الشام إلى طابع إسلامي تجلت خلاله الروح الاسلامية لدى هيئات المجتمع وأفراده ووجهت أنشطتهم في جميع ميادين الحياة القائمة.

## ثانياً :التوجيه الإسلامي للقيادات الإدارية :

تميزت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية في الدولة الزنكية بالالتزام بالقيم التربوية على المنهج الإسلامي في جميع أنشطتها وممارساتها، وذلك راجع إلى تربيتها الإسلامية القويمة من خلال القدوة الحسنة، فقد كان نور الدين زنكي نفسه تقياً ورعاً زاهداً وصفه المؤرخ ابن الأثير بقوله: «قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبدالعزيز، ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه»[٢٤].

وكان - رحمه الله - لا يأبه بألقاب السلطنة والجاه، و يتجرد عن كل ما يمكن أن يميزه عن سائر أمته. من ذلك أنه تلقى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها قائمة بالألقاب التي كان يذكر بها على منابر بغداد، ومنها «اللهم وأصلح المولى السلطان الملك العادل العالم الزاهد العابد، الورع المجاهد، المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي الإمامة وأثيرها، فخر الملة

ومجيرها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين منصف المظلوم من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين»[٢٥]. لكن نور الدين لم تشغله تلك الألقاب، ولم يأبه بها فأمر بإسقاطها جميعا قبل موته، وارتضى دعاءً واحداً يقول: «اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي»[٢٦].

ومما يؤكد تواضع هذا الرجل وحقيقة توجهه رواية أوردها أبو شامة تتضمن كلمات من إنشاء نور الدين نفسه حيث روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره ابن القيسراني، بعد أن تذمر من كثرة الألقاب التي ينعت بها، وأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه؛ ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: «اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين. فإن هذا جميعه لا يدخله كذب ولا تزيّد؛ والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى»[٢٧]، فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته: «مقصودي ألا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل، قلة عقل عظيم، الذي كتبْتَ جيد هو، اكتبْ به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد». وكتب في آخر الرقعة: «ثمّ يبدؤوا بالدعاء: اللهم أره الحق حقاً، اللهم انصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس»[٢٨].

وبفضل تلك السيرة والتربية بالقدوة سار رجال نور الدين على نفس المستوى من العلم والأخلاق، ونهج رجال دولته، ومعاونوه، وقادة الجيش هذا المنهج السليم.

وقد اعتمد نور الدين على نفس النظم الإدارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وجاء الأيوبيون والمماليك من بعده لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والشمول. لكن نور الدين أكد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة ذلك هو أن كفاءة أجهزتها وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بنيان الجهاز أو تركيب المنصب نفسه قدر اعتمادها على الرجال أنفسهم الذين يعهد إليهم بتسييرها[٢٩]. ومن ثم فإننا نجد نور الدين قد اعتمد في إدارة دولته المتنامية والمترامية الأطراف على عدد كبير من الرجال المتميزين بقدراتهم ونزاهتهم وثقافتهم الإسلامية وقبولهم لدى جماعة المسلمين، مستبعداً في ذلك أي معنى لا نتماءاتهم الاجتماعية والجنسية والجغرافية. وهو نفسه الرجل الذكي الألمعي الذي لا تخفى عليه الأحوال، ولا تتبهرج لديه الرجال كما يصفه العماد الاصفهاني[٣٠]. ولم يتقدم لديه إلا ذو الفضل والقدرة على الإنجاز بغض النظر عن الاعتبارات الشكلية، التي يرفضها نور الدين أشد الرفض، حتى إن عدداً من كبار موظفيه كانوا من الخدم والعبيد، وعدداً آخر كانوا من غير الشاميين، ممن جاؤوا من أقاصي المشرق والمغرب، فولوا على المناصب وصعدوا قدماً صوب أرقى الدرجات لأنهم جاؤوا إلى نور الدين وهم يملكون كفاءات الإدارة الناجحة[٣١].

**وقد برزت أسماء لامعة في ميدان الإدارة في دولة نور الدين نذكر منهم:**

● نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، والد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وإليه ينتسب الأيوبيون، وهو من أكابر أمراء عسكر دمشق، وممن ساعد نور الدين على ملك دمشق وكانت له منزلة عالية لدى نور الدين.

كانت وفاته في مصر سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م)[٣٢] وقد ذكر ابن الأثير أن سائر أمراء نور الدين كانوا لا يقعدون إلا إذا أذن لهم بذلك إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك[٣٣]. ومنهم أسد الدين شيركوه بن شاذي عم السلطان صلاح الدين، وقد كان أسد الدين الساعد الأيمن لنور الدين، وقد اعتمد عليه في الوصول إلى الحكم في حلب بعد مقتل أبيه عماد الدين سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) يشير إلى ذلك أبو شامه نقلاً عن ابن أبي طي الحلبي أنه: «لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته، وقصد خيمة نور الدين وقال له: اعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعزم على تقديم أخيك سيف الدين وقصده إلى الموصل، وقد انضوى إليه جل العسكر. وقد أنفذ إلى جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج. وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق. فركب وأمر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، ودخلوها سابع ربيع الأول. ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها وقرر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك وأسد الدين يمن بأنه كان السبب في توليه»[٣٤] كما اعتمد عليه نور الدين في قيادة جيشه إلى مصر أكثر من مرة حتى تم له فتحها في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ولم يلبث أن توفي بها فجأة في جمادى الآخرة من العام نفسه[٣٥].

- وكان نائب زنكي في حلب «سوار بن آيتكين» الملقب بمسعود وذلك في الفترة ما بين (٥٢٤-٥٤١هـ/ ١١٣٠-١١٤٦م) وكان سوار بن آيتكين قد قدم إلى حلب في سنة ٥٢٤هـ (١١٢٩م) هارباً من دمشق إثر تدهور علاقاته

بأميرها وتقدم لعرض خدماته على زنكي: «فأكرمه هذا وشرفه وخلع عليه وأجرى له الإقطاعات الكثيرة وأعطاه ولاية حلب وأعمالها واعتمد عليه في قتال الصليبيين وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور»(٣٦).

وقد اعتمد نور الدين على سيف الدين سوار بعد وفاة والده زنكي واستمر سيف الدين سوار يشغل منصب قيادة العساكر في دولة نور الدين(٣٧).

- كما كان صلاح الدين بن أيوب الياغسياني يتولى منصب أمير حاجب لدى زنكي منذ دخول الأخير الموصل سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) وقد ظل الياغسياني يلازم زنكي في حله وترحاله حيث اعتمد عليه في مهامه العسكرية وجعله أحد قواده الكبار وكلفه بقيادة جيشه في عدد من المعارك والمهام العسكرية(٣٨).

وقد شارك الياغسياني أسد الدين شيركوه في إسناد مركز نور الدين في الأيام الفاصلة التي أعقبت مقتل زنكي وتمكينه من إنشاء إمارته في حلب(٣٩)، فاستمر ولاء نور الدين للياغسيان واستمر الياغسياني على ما كان عليه أيام زنكي مستشار الإمارة الأول وأحد كبار رجال الإدارة فيها، وهذا واضح من حديث ابن العديم عنه أنه: «كان يدبر أمور نور الدين في حلب ويقوم بحفظ دولته»(٤٠)، وقد أقطعه نور الدين مدينة حمص، وكانت وفاته بها في ذي القعدة سنة ٥٥٢هـ (١١٥٨م)(٤١).

كما أن نور الدين محمود اتصل سنة ٥٤٤هـ (١١٣٠م) بالوزير جمال الدين الأصفهاني كبير وزراء الموصل في عهد زنكي وابنه سيف الدين غازي من بعده، والمتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م)(٤٢). وحاول إقناعه بالتحاقه بخدمته قائلاً له: «لابد من أن تكون عندي، فلي من الحق مثل ما لأخي، وأنا أحوج إليك منه»(٤٣)، فردّ عليه جمال الدين قائلاً: «أنت فيك من الكفاية ما

يستغني به عن وزير ومشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لأن عدوك كافر، فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك»[٤٤]. فكفّ نور الدين عن المطالبة به.

ويبدو أن نور الدين لم يشأ أن يجعل جلّ اعتماده على العناصر الإدارية المخضرمة ورأى أن يطعمها بعناصر جديدة أكثر ملائمة منهما لأهدافه وأقرب للتجانس معها. وكان من أبرز هؤلاء القادة مجد الدين محمد أبو بكر ابن الداية أخو نور الدين في الرضاعة، وقد تربى معه ولزمه إلى أن ملك الشام بعد والده، حيث مال إليه نور الدين وولاه كما يذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبي طي: «جميع أموره وجميع مملكته»[٤٥]. وأصبح الرجل الأول في دولة نور الدين منذ سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) حتى وفاته سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م)[٤٦] وبعد وفاة مجد الدين عهد نور الدين بجميع ما كان له من مناصب وصلاحيات إلى أخيه شمس الدين علي[٤٧].

ومن أمثلة رجال الإدارة ممن عرفوا بإخلاصهم في الدولة الزنكية وفي عهد نور الدين محمود خاصة نجد: وزيره أبا الفضل محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري. فقد كان فقيهاً أصولياً شغل عدة مناصب في دولة نور الدين منها: السفارة والوزارة وناظر الأوقاف والقضاء، واستمر أبو الفضل على ذلك في دولة صلاح الدين[٤٨].

ومنهم القاضي عبدالله بن محمد بن أبي عصرون الذي شغل منصب قاضي دمشق وناظر أوقافها[٤٩].

ومنهم العماد الأصفهاني الذي قدم دمشق في شعبان سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م) وأعانه القاضي كمال الدين الشهرزوري على التقدم في دولة نور

الدين. فتسلم ديوان الإنشاء في مطلع سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)، وصار رئيس ديوان الإنشاء، وكاتب السر، ومدبج الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)(٥٠).

ومنهم، الموفق خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر مستوفي الدولة، أحد أعيان الكتاب. أصله من قيسارية الشام، وإليها ينسب، كان مولده في حلب، وقد استوزره نور الدين في دمشق، ذكر العماد الأصفهاني في (الخريدة) أنه لما وصل الشام وجد القيسراني «في صدر مناصبها وبدر مراتبها. . وكان نور الدين قد رفعه واصطنعه وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه. ولقد كان حقيقاً بذلك» وقد توفي ابن القيسراني في دمشق سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)(٥١).

وهناك محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر، وقد وصفه سبط ابن الجوزي بأنه «عزيز عند نور الدين ومن أعظم أمرائه» وأنه عند سماع نور الدين نبأ وفاته سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م) ووفاة مجد الدين بن الداية في العام نفسه، بكى وقال: «قصّت جناحاي» وكافأ أولاد العمادي بإقطاعهم بعلبك(٥٢).

ولم تكن هذه الشخصيات إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم في الدولة الزنكية في عصر نور الدين محمود، وغيرهم كثير ممن بلغ القمة التي بلغها أولئك الرجال، وأظهر هؤلاء القادة من صنوف المهارة في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة، وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات التي واجهتها حكومة نور الدين في الداخل والخارج.

**وكانت أهم تلك المهارات والمقدرات ما يأتي:**

تكاثف الجهود واعتماد الشورى، وعدم الانفراد في اتخاذ القرارات حيث تميزت إدارة نور الدين باتباع الشورى وتبادل الآراء في كل شؤون الدولة. فكان له مجلس يلتقي فيه العلماء في مختلف تخصصاتهم، وكانت تعقد اجتماعات دورية في هذا المجلس للنظر في أمور الدولة كما كان يحضر هذا المجلس كبار قادة الدولة في مختلف الوظائف حتى تكتمل القيادة العسكرية والسياسية في الدولة، وتتحقق الفائدة المرجوة.

وقد وصف لنا ابن الأثير مجلس نور الدين بقوله: «وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حِلم وحياء لا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلمَ والدين، وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا»[٥٣] ويواصل ابن الأثير وصفه لمجلس نور الدين، فيقول: «بلغني أن الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط، وسوء أدب الجلوس فيه مالاحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه. فقال: نزهت نفسي عن مجلسك، فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة، لا يستمع فيه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه، أنه لا يكون منهم ماجرت به عادتهم إذا

حضر الحافظ، فهكذا كانت أحواله جميعها-رحمه الله تعالى- مضبوطة محفوظة»(٥٤).

ومن مجالس الشورى والرأي المشهورة في حكومة نور الدين، ما حدث في قلعة دمشق في التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٥٤هـ(١١٤٩م) حين عقد نور الدين مجلساً دعا فيه القضاة وكبار رجال الدولة ونفراً من الأعيان وشهود العدالة للنظر في الأوقاف المرصدة للجامع الأموى، وكان شيوخ الجامع فيما مضى قد أدخلوا في أوقاف الجامع عقارات وأعيان أخرى داخله في المنافع العامة. فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك ليستغل أموال المنافع العامة في بناء التحصينات العسكرية في الثغور وتعمير سور دمشق لصيانة المسلمين وأموالهم لأن ذلك من أهم المصالح عند نور الدين، وبعد أن تناقش الحاضرون في الموضوع أقر المجلس رأيا يخالف ما أراده نور الدين إذ لم يأذنوا له بصرف فواضل الأوقاف في بناء التحصينات، وعمارة الأسوار، وعمل الخندق للمصلحة المتوجبة على المسلمين، وأجازوا له أن يأخذوا قرضاً من هذه الفواضل يصرفه على تلك المصالح على أن يرده من بيت المال. وقد قبل نور الدين رأي المجلس الاستشاري هذا بنفس راضية مع شدة حاجته إلى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع في ذلك الحين، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة بأي طرف احتراماً للرأي الإجماعي من المجلس الاستشاري. وقد أورد أبو شامة مختصراً لمحضر ذلك المجلس «وهو مشتمل على فوائد حسنة وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة»(٥٥).

وقد سجل حسين مؤنس ما لاحظه عن الروح الإسلامية عند هذا الرعيل من القادة والإداريين البارزين في دولة نور الدين بقوله: «ونلاحظ أن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة، فبينما كان

البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة، فيقولون: عضد الدولة وبهاء الدولة، وصمصام الدولة، كان السلاجقة يختارون: عماد الدين، وسيف الدين، ومعين الدين، وما إلى ذلك. ثم جاء جيل نور الدين عربى الأسماء، فاختفت الألقاب التركية، كما نرى في نور الدين محمود وسيف الدين غازي وقطب الدين مودود ونصرة الدين محمود»[٥٦].

## ثالثاً: نشر المذهب السني، ونبذ الخلافات المذهبية:

إن السياسة التعليمية التي انتهجها الزنكيون كانت سياسة تتطلبها واقعية الظروف السياسية العامة في ذلك الوقت، وإن نور الدين محمود الذي كان يعد المسؤول الأول عن توجيه سياسة الدولة لابد وأن يكون قد استهدف من سياسة نشر العلم والإكثار من بناء المدارس، غاية تخدم مصالح دولته، ولا يمكن له تحقيق تلك المصالح إلا بتخلي رجال الفكر والعلماء وجماهير الأمة عن أطر الانتماء المذهبي الضيق، وتجاوز الخلافات والفروق، وقد أوضح نور الدين تلك السياسة بقوله على لسان المؤرخ أبي شامة المقدسي: «نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين»[٥٧].

وقد أدرك نور الدين بثاقب بصره أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الوجود الصليبي الذي بات يهدد سائر الأقطار الإسلامية، وليس بلاد الشام فحسب، أدرك أن هذه الحركة لن يكتب لها النجاح إلا في ظل جبهة إسلامية عريضة تمتد لتشمل العالم الإسلامي بأكمله، ولذلك تكون متحدة القوى والمذهب لتجعل من المسلمين قوة يصعب تفتيتها.

وقد ركز نور الدين سياسته منذ بداية حكمه في توظيف التعليم لخدمة مصالح دولته وهذا الأمر يتطلب تخلي رجال الفكر والعلماء وعامة الناس

عن قيود الانتماء المذهبي الضيق، ونبذ الخلافات بين رجال المذاهب السنية فعمد منذ البداية إلى التقريب بين رجال المذاهب السنية دون التفريق بين مذهب وآخر، وهذا ما أدى بدوره إلى نتائج طيبة في توحيد المنطقة فكرياً قبل التفكير في توحيدها سياسياً.

لقد كان الخلاف المذهبي من أهم عوامل الفرقة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، فعمد نور الدين في بداية حكمه إلى نهج سياسة أراد بها التمكين للمذهب السني في بلاده، سواء عن طريق تشجيع التعليم، والتوسع في إنشاء المدارس على مذهب أهل السنة والجماعة، وهي أهم خطوة قام بها ليضمن نشر المذهب السني في المنطقة، وليتحقق له مواجهة الفكر الشيعي، وتقليص نفوذه، وإيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني، ونشره في المناطق المجاورة، وكذلك تخريج جيل من الموظفين الذين يشاركون في إدارة شؤون الدولة وفق النظرة التي سبق أن أشير إليها في التحدث عن التوجيه الإسلامي للقيادات الإدارية، وهذه الخطوة وإن كانت غير مباشرة في عملية نشر المذهب السني على حساب المذهب الشيعي، فإنه كان لها أثر واضح في هذا الأمر على مر الأيام.

أما العمل المباشر في ذلك، فإنه بدأ بمواجهة نور الدين لمذهب التشيع الذي كان واسع الانتشار في حلب منذ أيام الملك رضوان بن تتش السلجوقي (٤٨٨-٥٠٧هـ/ ١٠٩٥-١١١٣م) الذي اعتمد على الباطنية، وآواهم. وبنى لهم دار دعوة في حلب مما ساعد على قوتهم، واشتداد شوكتهم في المنطقة، فقام نور الدين بخطوة مباشرة ضدهم في عام ٥٤٣هـ (١١٢٩م) وأمر بإبطال بعض شعاراتهم، ومنها الأذان بحي على خير العمل، والتظاهر بسب الصحابة. وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وقد ساعده في

ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة. وعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيع، «وضاقت له صدورهم، وهاجوا له، وماجوا، ثم سكنوا، وأحجموا بالخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة»[(٥٨)].

كما قام نور الدين بخطوة أخرى في هذا الشأن وهي إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب ممن كان يخشى خطرهم، وممن كان لهم أثر في جماعتهم، وكان على رأس المبعدين والد أبي طيء الحلبي[(٥٩)].

وكان نور الدين محمود سنياً عارفاً بمذهب أبي حنيفة ملتزماً به من غير تعصب منه ولا تحيز، فالمذاهب السنية عنده-كما أجمع المؤرخون-كلها سواء وكان «الإنصاف سجيته في كل شي»[(٦٠)].

فقد كان له مستشاروه ورجال دولته الذين يضمون في صفوفهم الحنبلي، والمالكي والشافعي والحنفي، فلم تفرق الدولة بين مذهب وآخر، وهي تشيد المدارس، ودور القرآن، ودور الحديث، والربط والزوايا، ولم تهتم إلى أي فئة تؤول أي من هذه المؤسسات ما دامت جميعها تسترشد بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتشكل رافداً للعمل الإسلامي الموحد الذي تقوده الدولة وتنسق الجهود من أجله.

وبذلك نجح نور الدين محمود في تكتيل جهود علماء السنه لمحاربة الفكر الشيعي.

وكان قد أدرك أهمية تدريس الحديث الشريف والاعتناء به لمناهضة الفكر الشيعي، فأمر بتخصيص بعض الزوايا لذلك، حيث أوقف زاوية بجامع حلب لتدريس الحديث[(٦١)]، وهذا كله تمهيد لما قام به في دمشق من إنشاء أول مدرسة تخصصية لتدريس الحديث، وهي دار الحديث النورية[(٦٢)]. وقد كان الاعتناء بتدريس الحديث الشريف من أبرز سمات

التعليم في دولة نور الذين وهو أسلوب استفاد منه نور الدين كثيراً في نشر المذهب السني، ومناهضة الشيعة، وحقق بذلك نجاحاً كبيراً، علق عليه ابن عساكر بقوله: «وأظهر بحلب السنة حتى أقام شعار الدين، وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة المبتدعة، ونشر فيها مذهب أهل السنة الأربعة»(٦٣). وكذلك فعل في بقية بلاده.

## رابعاً: الاهتمام بالمؤسسات القضائية، وإقرار العدل بين الرعية:

أولى نور الدين محمود المؤسسات القضائية اهتماماً كبيراً ضمن اهتمامه الكبير ببقية لبنات حكومته، وجعلها تواكب التطور الكبير الذي شهدته الأجهزة الإدارية في الدولة، واعتمد فيها على رجال ثقات، رأى فيهم العلم الواسع والفقه والتقوى(٦٤).

وكان هو نفسه حريصاً على إقامة العدل ونشر الأمن في بلاده، وقد شهد له ابن عساكر بقوله: «فلقد أحسن إلى العلماء وأكرمهم، وقرب المتدينين واحترمهم، وتوخى العدل في الأحكام والقضايا، وألان كنفه وأظهر رأفته بالرعايا، وبنى في أكثر مملكته أدْؤُر العدل وأحضرها القضاة والفقهاء للفصل، وحضرها بنفسه في أكثر الأوقات واستمع من المتظلمين الدعاوي والبينات طلباً للإنصاف والفصل وحرصاً على إقامة العدل»(٦٥).

وكان -رحمه الله- جديراً بلقب الملك العادل إذ امتدحه ابن الأثير بقوله: «قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبدالعزيز، ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه»(٦٦).

وكان لشدة عنايته بالعدل يتخذ لنفسه مجلساً بالمسجد المعلق بدمشق كل يوم ثلاثاء لسماع شكاوى الناس، وليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة رجالاً ونساء[٦٧]. واستمر على هذه الحال حتى أمر ببناء دار العدل الكبرى بدمشق، وكان أول من بنى داراً لكشف المظالم[٦٨]. فنقل مجلسه إليها مرتين في الأسبوع وقيل أربع أو خمس مرات للنظر في أمور الرعية، وكشف ظلاماتهم[٦٩]. وكان يحضر معه القاضي كمال الدين الشهرزوري، وكبار العلماء من المذاهب الأربعة مكونين مجلساً قضائياً أعلى لاتخاذ القررات النهائية[٧٠].

وكان -يرحمه الله- يأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن كلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فيأمر بمساواتها له، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده، فيجري الله على لسانه ماهو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عمّا يشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة»[٧١].

وقد أشار ابن الأثير إلى أنه «لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة»[٧٢]. وقد علق ابن الأثير على تلك الأعمال بقوله: «وأمنت بلاده مع سعتها، وقلّ المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر»[٧٣].

## خامساً: ازدهار الحياة الاقتصادية، وإنشاء المرافق العامة:

أولت الحكومة الزنكية في عصر نور الدين محمود الناحية الاقتصادية عناية كبيرة لما لهذه الناحية من تأثير مباشر على الحياة العامة في أي دولة ما.

فقد اهتم السلطان نور الدين محمود اهتماماً بالغاً في هذا المجال، إذ قام بسياسة اقتصادية ناجحة في دولته تعتمد على إزالة الضرائب والمكوس عن كافة البلاد، وكان لهذه السياسة أثرها في تشجيع النمو الاقتصادي وإقبال الناس على الإسهام في العمل والبناء(٧٤).

ولقد وصف حسين مؤنس هذه السياسة وما نتج عنها من آثار إيجابية، وقارنها بالسياسات الاقتصادية السلبية التي سبقت هذا العهد - وذلك بقوله: «وقد التزم نور الدين أحكام الشريعة أيضاً فيما يتصل بما يجبى من الضرائب، وقد كانت مقاديرها ووجوهها قد تزايدت مع الزمن، حتى إن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكساً (أي ضريبة) يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها. وابتكر ظلمة الحكام فيها أشياء بعد أشياء، ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثيرون من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس أموالهم، وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما يتقوتون به، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبي أضعافه من الناس. وليتهم مع ذلك قاموا بحماية الناس ورعاية المرافق»(٧٥).

وقد أخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منذ فترة مبكرة من حكمه، وكان يصدر أوامره حيناً ويعمم الكتب والمناشير حيناً آخر آمراً بإسقاط حشود الضرائب غير الشرعية التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء

سياسة الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوه، والتي كان لا يزال الكثير من الحكام والأمراء الذين عاصروه يجبونها من مواطنيهم، وكان نور الدين ينتهز الفرص المناسبة، كمناسبة فتح من الفتوح أو انتصار من الانتصارات ليعلن فيه إسقاط حشد من الضرائب المفروضة على الناس من قبل الحكومات السابقة(٧٦).

وقد أسهبت المصادر التاريخية في وصف تلك السياسة في أمثلة عديدة منها:

أن نور الدين عندما دخل دمشق سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) أصدر منشوراً بإسقاط المكوس، والضمانات، والضرائب، والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق: دور البطيخ، سوق الخيل، سوق البقر، ضمان الأنهار، سوق الغنم، الكيالة وغيرها، وقرىء المنشور على المنبر بجامع دمشق يقول ابن القلانسي: «فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس من التناء(٧٧). والفلاحين، والحرم، والمتعيشين برفع الدعاء إلى الله تعالى، بدوام أيامه ونصرة أعلامه»(٧٨).

وفي سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) عندما دخل شيزر أصدر منشوره بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم أنحاء دولته وقد جاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» هذا ما تقرب به إلى الله تعالى سبحانه صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم على العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خصهم الله سبحانه وتعالى بفضيلة الجهاد، واستمحنهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم، وإعظاما لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله

لهم أجراً وثواباً، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب؛ وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح. . بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين . . فطمس عنهم بذلك معالم الجور وهدم أركان التعدي. . ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام وأظفره بالفئة الباغية. . فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها تجنباً لإثمها واكتساباً لثوابها. فكان مبلغ ما سمع منه وأطلقه وأنفذ الأمر فيه اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار» وذلك في حلب وعزاز، وتل باشر، والمعرة، ودمشق، وحمص، وحران، وسنجار وغيرها[٧٩].

ولقد استمر نور الدين ينهج تلك السياسة الاقتصادية بإسقاط المكوس والضرائب المفروضة حتى السنة التي توفي بها، حيث يصف العماد الأصفهاني الوضع الضريبي في تلك السنة بأنه لم يبق حين ذلك من الضرائب «سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج»[٨٠].

ويؤكد كل من ابن الأثير وأبي شامة ما ذهب إليه العماد الأصفهاني حيث يقول ابن الأثير: «إنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة لا مكساً ولا عشراً، بل أطلقها جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعا، والموصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها، مما حكم عليه، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، فأطلقها، وهذا لم تتسع له نفس غيره»[٨١].

أما أبو شامة فيذكر أن موفق الدين خالد القيسراني، وزير نور الدين رأى

في منامه كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً في غاية الخجل، فاستدعاه يوماً نور الدين وقال: تعال، قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين: «إنني قد رفعت عنكم ما رفعه الله عنكم، وأثبت عليكم ما أثبته الله عليكم» قال: فكتب موفق الدين توقيعاً بذلك(٨٢).

وقد رافق هذه السياسة ازدهار اقتصادي في مجالات الصناعة، والتجارة، والزراعة، حيث شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير أثر هذا الازدهار الاقتصادي خلال تجواله في البلاد الشامية سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) وذلك بعد وفاة نور الدين محمود بسنين قليلة(٨٣)، ووصف ذلك الازدهار وصفاً دقيقاً في كتابه الرحلة فمن قوله في أثناء زيارته إلى حلب: «وأما البلد فموضوعه ضخم جداً، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقيّد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً»(٨٤).

ووصف الصناعة والتجارة في حماة بقوله: «وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم»(٨٥).

أما الزراعة في حماة فقد قال عنها: «وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الأعناب وفيه المزارع والمحارث، وفي منظره انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطّي النهر، وهو يسمى العاصي»(٨٦).

كما نتج عن هذه السياسة الاقتصادية آثار جليلة شملت جميع نواحي البلاد من المدن والقرى، وجميع ميادين الحياة فيها، وقد وصف حسين مؤنس تلك الآثار بقوله: «وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وأعلن كل إنسان ما عنده، فجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبي من وجوه الحرام، فأقبل-نور الدين-يعد للجهاد آلته مما آتاه الله، ونشط في البناء والتعمير حتى أنفق فيهما الملايين بعد الملايين من الدنانير، وقد أعانه على ذلك أنه لم تكن له نفقات خاصة: لا قصور ولا خدم ولا حشم ولا جوار ولا مجالس أنس تملأ أفواه الندامى فيها بالدّر والدنانير جوائز على أبيات من شعر الملق السخيف. وهذه هي الأبواب التي استنفدت ثروات الخلفاء والملوك قبله وبعده. هذا رجل اكتفى بأيسر الضرائب، واستطاع بالقليل الذي وصل إليه أن يُهيىء الجيوش بعد الجيوش، ويبني مئات المدارس والمساجد والمستشفيات، ويقيم أسوار المدائن وقلاعها ويشك كل قلعة بالجند والذخائر والأقوات»(٨٧).

كما نتج عن هذه السياسة الاقتصادية أيضاً توافر فرص العمل في جميع نواحي البلاد التي كان يحكمها نور الدين مما أدى بدوره إلى جذب أفواج كبيرة من جميع أقطار العالم الإسلامي إلى أقطار الدولة الزنكية لطلب الرزق فيها. وإلى هذا أشار ابن جبير في رحلته بقوله: «فالغريب المحتاج هنا إذا كان على طريقة الخير مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه. وسائر الغرباء ممن ليس على هذا الحال ممن عهد الخدمة والمهنة يسبب له أيضاً أسبابا غريبة من الخدمة: إما بستان يكون ناطوراً فيه، أو حمّام يكون عيناً على خدمته، وحافظاً لأثواب دَاخليه، أو طاحونة يكون أميناً عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهَم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة»(٨٨).

كما ترتب على ازدهار الحياة الاقتصادية في تلك الدولة المسارعة بإقامة المنشآت والمرافق العامة، فقد أمر نور الدين بإنشاء المدارس والخانقاهات، وأكثر منها في كل بلد وأوقف عليها الوقوف الكثيرة، وأمر ببناء الربط والخانات في الطرقات، فأمن الناس، وحفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر، وبنى أيضا الأبراج على الطرق، وبين المسلمين والفرنج، وبث فيها من يحفظها، وجعل فيها الحمام الهوادي فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا تلك الطيور فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم فلم يبلغ العدو منهم غرضا(٨٩).

كما أقام بدمشق داراً للحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين الوقوف الكثيرة وهو أول من بنى داراً للحديث في الإسلام، وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليها وعلى معلميهم الجرايات الوافرة، وبنى أيضاً مساجد كثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن أوقافاً كثيرة، ويضيف أبو شامة أن وقوف نور الدين في زمنه، «سنة ثمان وست مائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية، وليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظاهراً أو باطنا، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث عنه أو ما غلب عليه من البلاد الفرنج وصار سهمه»(٩٠).

كما بني البيمارستانات في البلاد، وأكثر منها، وكان أعظمها كما يذكر ابن الأثير «البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير»(٩١).

وكانت أعمال نور الدين مثلاً لمن حوله من الوزراء وقادة الجيش، فقد نحوا نحوه في بناء المدارس والمساجد والبيمارستانات، ومثال هذا ما قام

به قائده أسد الدين شيركوه ووزيره أبو الفضل الشهر زوري، وعبدالله بن أبي عصرون، وغيرهم من رجال دولته، وعلى هذا المنهاج سار بقية رجال الحكم والإدارة في دولة نور الدين وحذت حذوهم نساؤهم أيضاً، من ذلك ما فعلته الست خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين حيث أوقفت المدرسة الخاتونية بمحلة الذهب وخانقاه خاتون بباب النصر، وأوقافاً كثيرة أخرى[٩٢].

ولقد وصف ابن جبير ذلك حين زار دمشق فقال: «ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف. ومن الأمراء من يفعل ذلك، لهم في الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل»[٩٣]

## سادساً: بناء القوة العسكرية على المنهج السليم:

أولت الدولة الزنكية بقيادة السلطان نور الدين محمود القوة العسكرية اهتماماً بالغاً، وركزت بالدرجة الأولى على بناء القوة العسكرية رجالاً، وعدة، وسلاحا. كما اهتم نور الدين بالصناعات الحربية وإنشاء القلاع والحصون في مواجهة الأعداء.

إن نور الدين يعرف جيداً طبيعة المنطقة التي قدر له أن يتولى إحدى قياداتها المهمة، ويقف على ثغر من ثغورها المتقدمة بمواجهة الخطر الصليبي الماثل أمامها، ولقد امتازت القيادة الزنكية بمهارات عالية في التدريب العسكري، وتنظيم الجيوش، والتخطيط للمعارك، وعلى رأس هذه القيادة شخص نور الدين نفسه الذي كان يقضي الساعات الطويلة في التدريب اليومي العسكري وما يتعلق به من ركوب الخيل ورمي الرماح حتى تكونت لديه شخصيته العسكرية الفذة[٩٤].

لقد تسلم نور الدين القيادة مجاهداً من الطراز الأول. ذلك الجهاد بمفهومه البعيد العميق الذي يطبع أخلاقية المقاتل وفكره وعاطفته، وإرادته وأعصابه وتكوينه النفسي على السواء، وهو يذكرنا هنا بنماذج المجاهدين الأوائل الذين تربوا على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ففتحوا العالم وأسقطوا تيجانه وعروشه، وغيروا خرائطه. لقد كان هذا التكوين الجهادي المتميز عاملاً من أكبر عوامل الانتصار الذي حققه نور الدين في مواجهاته الحاسمة مع الصليبيين حتى أصبح أحد الأبطال الكبار في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين(٩٥).

كما كان - رحمه الله تعالى - يتحرى سنن النبي صلى الله عليه وسلم في أموره كلها ومنها الأمور العسكرية. من ذلك أن الجند في زمنه قد اعتادوا ربط سيوفهم في أوساطهم، فلما سمع في حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتقلد سيفه، التزم ذلك وخرج أمام الناس متقلداً لسيفه، فتبعه عساكره في ذلك(٩٦).

ويعلق ابن قاضي شهبة على هذه الحادثة فيقول: «رحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة. بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن؟!»(٩٧). وتسهب مصادر العصر في إيراد الروايات عن شجاعة نور الدين وحماسته في الجهاد، وكان كما يصفه سبط ابن الجوزي «ثابت القدم، حسن الرمي، يتقدم أصحابه ويتعرض للشهادة ويسأل الله أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير»(٩٨). وهو يملك في حسه وتصوره ووجدانه معنى الشهادة العميق الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلباً للشهادة فأسقطوا الدول، وغيروا خرائطه وأسقطوا عروشه(٩٩). فكان نور الدين إذا حضر الحرب باشر القتال بنفسه،

وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها، وسمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابوري، الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك، فقال له: «بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم، وإن أصبت والعياذ بالله في معركة، لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا وأخذه السيف وأخذت البلاد. فقال له: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا قبلي من حفظ البلاد والإسلام ذلك الله الذي لا إله إلا هو»[١٠٠]. وثمة روايات ووقائع كثيرة تشير إلى مزيد من الدلائل والشهادات على شجاعة الرجل، وحسن قيادته، وتمتد لتغطي الثلاثين سنة التي قاد فيها أمته في ميادين الحرب والسلم[١٠١].

وكانت العادة قبل نور الدين أن يعتبر قائد كل جماعة من الفرسان أو الجند مسؤولاً عنهم، فيعطى أرزاقهم وسلاحهم أو النفقات اللازمة للسلاح، فكان القائد يحوز لنفسه أكبر جانب من ذلك المال، ويهمل عدة الفرسان أو المحاربين. أما نور الدين، فقد حرص أن يتفقد جنده بنفسه ويشرف على استعداداتهم مخافة أن يقصر القادة في حقهم وقد أكد ذلك ابن الأثير بقوله: «وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه، وسلاحهم، ودوابهم، خوفاً من أن حرص بعض الأمراء وشحة يحمله على أن يقصر على بعض ماهو مقرر عليه من العدد ويقول: «نحن كل وقت بصدد النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدد و العُدد، دخل الوهن على الإسلام»[١٠٢].

وقد وصف حسين مؤنس النظام المالي الذي كان نور الدين يعامل به قواده وعساكره بقوله: «وكانت العادة أن يُعْطى كبار القواد والظاهرون من صغارهم وفرسانهم إقطاعات إلى جانب المرتب الجاري. والإقطاع هنا لا يراد به الناحية بما فيها من أرض وبيوت وناس، بل صافي خراجها فقط، فلا علاقة للمقطع بالأرض أو الناس. فإذا قيل: إن نور الدين مثلاً أقطع فلاناً

مدينة حمص، فليس معناه أنه جعله صاحبها بل المراد أنه خوله الحق في أن يأخذ لنفسه صافي إيرادها بعد نفقات المنافع العامة ومرتبات الموظفين، عسكريين ومدنيين. وقد يقيم المقطع في إقطاعه أو لا يقيم، لأن إدارته كانت بيد رجال السلطان لذلك كان الدفاع عنه بيد الحامية التي يرصدها السلطان في البلد، حتى قلعة البلد كانت بيد رجل يسمى مستحفظ القلعة أي حافظها، أي إن الإقطاع - على هذا- كان نوعاً من المكافأة المالية إلى جانب الراتب، وكانت العادة أن يسقط الإقطاع بوفاة صاحبه، فثبته نور الدين للابن الأكبر والذي يليه إذا مات، فإذا كان الابن صغيراً أقيم عليه وصي حتى يكبر ويتولى فأصبحت الإقطاعات وكأنها موارد ثابتة واعتبرها القواد أملاكاً»[١٠٣].

وقد امتدح ابن الأثير هذه السياسة الإقطاعية وبين آثارها على القائد، وذلك بقوله: «ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلّف ولداً، أقر إقطاعه عليه فإذا كان الولد كبيراً، استبد بنفسه وإذا كان صغيراً رتّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون، هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب»[١٠٤]، لأن القائد كان يعرف أنها إذا ضاعت الجهة ضاع أيضاً إيراده منها.

وكان جيش نور الدين يضم جنسيات مختلفة، منها التركمان والأكراد والعرب، وكان يتشكل من عدة فرق، وعلى كل فرقة أمير مقدم، ومن أشهر هذه الفرق، الياروقية (نسبة إلى قبيلة ياروق التركمانية)، والأسدية (نسبة إلى أسد الدين شيركوه)[١٠٥].

وكانت هذه من أهم الأمور التي ركّز عليها نور الدين في بناء القوة العسكرية وإقامة الأسوار والقلاع والتحصينات الحربية، والتي مكنته من

تحقيق الكثير من أهدافه في هذا المجال. إذ إنه كان عماد الدفاع في ذلك العصر على تلك القلاع، والحصون، وقد حرص نور الدين على هذا الأمر حرصاً شديداً فأمر ببناء الأسوار والقلاع حول مدن الشام جميعها، فمنها حلب وحماة وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وأحصنها وأحكم بناءها(١٠٦).

وقد أنفق نور الدين في بناء هذه المشروعات أموالاً طائلة، وحرص أن يشرف بنفسه على سلامتها فكان إذا أتى بلداً دار بسوره وفحص أجزاءه ورمّ الضعيف منها، وفحص كذلك الأبراج وبناء القلعة فظلت على أيامه على حال من المنعة أفادت أعظم الفائدة في تلك المواجهات الدائرة بين المسلمين والصليبيين(١٠٧).

كما اهتم نور الدين ببناء أبراج المراقبة على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها أعداداً من الجند لحفظها، وجعل معهم الحمام الزاجل (حمام الهوادي) لنقل الأخبار إليه، فإذا رأوا أحداً من الأعداء أرسلوا تلك الطيور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلا يبلغ العدو منهم غرضاً ولا يمسه بأذى وقد استحسن ابن الأثير تلك الفكرة بقوله «وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعاً»(١٠٨)، وهذا أشبه ما يسمى في تقنية الحروب الحديثة بالإنذار المبكر.

## سابعاً: تحقيق الوحدة السياسية في الجبهة الإسلامية:

بدأت الدولة الزنكية بالظهور على مسرح الأحداث في بلاد الجزيرة والموصل، وفي بلاد الشام بعد ما وقع اختيار السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١-٥٢٥هـ/ ١١١٧-١١٣١م) على عماد الدين بن آقسنقر ليكون حاكماً على إمارة الموصل وما جاورها من البلاد، وذلك سنة

٥٢١هـ (١١٢٧م) لما علمه عن عماد الدين من كفاية، وحنكة سياسية[١٠٩].

وقد كان عماد الدين يدرك بثاقب بصره أن أي عمل عسكري ضد الصليبيين لا يمكن أن يكتب له النجاح في ظل غياب جبهة إسلامية موحدة وأن التفتت الذي أصاب الجبهة الإسلامية وما ترتب على ذلك من تناحر وعداء قد أسهم في الانتصارات التي حققها الصليبيون في المنطقة، فكانت سياسته ضد الوجود الصليبي في المنطقة تعتمد بالدرجة الأولى على القضاء على القوى الإسلامية الصغيرة التي كانت موجودة في الجزيرة وشمال الشام، ثم احتواء إماراتهم في منطقة نفوذه[١١٠].

وتنفيذاً لتلك السياسة، فقد نجح عماد الدين وفي فترة مبكرة من حكمه أن يستولى على كل من جزيرة ابن عمر، ونصيبين، وسنجار، والخابور، وحران، وهذه المدن في إقليم الجزيرة، كما استولي فيما بعد على كل من حلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، وغيرها من مدن الشام[١١١].

وبعد وفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) نهج ابنه نور الدين محمود نفس النهج الذي اختطه زنكي في القضاء على ظاهرة التفتت في الجبهة الإسلامية.

وقد بدأ نور الدين حكمه لإمارة محدودة لا تتجاوز مدينة حلب إلا قليلاً، وتوفي وهو يحكم دولة تمتد من حدود فارس شرقاً حتى صحراء ليبيا غرباً، ومن جبال الأناضول حتى النوبة واليمن والبحر العربي، ليس هذا فحسب بل إنه أنشأ دولته هذه وسط تحديات الصليبيين الذين انزرعوا في وسط المنطقة، وكانوا ما يزالون حتى ذلك الحين يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على الامتداد[١١٢].

كان نور الدين يدرك أهمية الاستيلاء على دمشق في مواجهة الخطر

الصليبي وتطويق مملكة بيت المقدس الصليبية، وقد سجل له التاريخ إنجازاً عظيماً في استيلائه على دمشق في صفر سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) وأعلن نهاية حكم الأسرة البورية فيها(١١٣).

ويعد استيلاء نور الدين على دمشق نقطة تحول كبيرة في موازين القوى بينه وبين الصليبيين إذ إن ضمه لهذه المدينة يعني تحقيق الوحدة بين شمال الشام ووسطه، أو بين حلب ودمشق، وذلك لأول مرة منذ مقتل تتش بن ألب أرسلان في سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)، وقيام هذه الوحدة يعني من وجهة نظر المقاومة الإسلامية إقامة خط دفاعي قوي يمتد من حلب في الشمال إلى دمشق في جنوب الشام، وتحكمه إرادة واحدة مخلصة(١١٤).

ويمكن القول إن ضم نور الدين دمشق وأعمالها التي تمتد جنوباً حتى تتاخم حدود مملكة بيت المقدس الصليبية قد أزال تلك الفجوة الواسعة التي كانت تحجز نور الدين عن مواجهة هذه المملكة وجهاً لوجه وازدادت جبهة الإسلام قوة بدخول دمشق ورجالها وإمكانياتها في صف المواجهة ضد الصليبيين، كما انفتح الطريق إلى مصر لأن الطريق من نواحي دمشق إليها كان مفتوحاً وإن كان يخترق الأراضي التي تحتلها مملكة بيت المقدس فإن رجال هذه المملكة كانوا عاجزين عن حراسة الأرياف وضبط الطرق إنما كان همهم التشبث بالحصون والسيطرة على ما حولها(١١٥).

كما أدرك نور الدين أن الجبهة الإسلامية لا يمكن أن تكتمل إلا بانضمام مصر إليها، وأنها إذ اتحدت كل من الشام والموصل ومصر تحت قيادته كان ذلك مؤذناً بنصر مؤزر بعون الله تعالى. وقد ملك نور الدين الآن بلاد الشام وبقيت مصر، والتي أخذ يتحين الفرصة الملائمة بضمها إلى دولته ويحقق بضمها الحلقة الأخيرة من حلقات توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادة موحدة.

وقد لاحت الفرصة لتحقيق طموح نور الدين بضم مصر وذلك حينما حصل خلاف شخصي بين القائد ضرغام بن ثعلبه والوزير شاور بن مجير السعدي سنة ٥٥٨هـ (١١٦٢م) مما جعل شاور يخرج من مصر إلى بلاد الشام لطلب النجدة من نور الدين محمود الذي وجد الفرصة أمامه مؤاتية للتدخل في شؤون مصر وضمها إلى الجبهة الإسلامية مما جعله يسارع إلى تلبية طلب شاور ووعده بالمساعدة على ضرغام خصوصاً أن نور الدين أدرك مدى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية في مصر من تفكك وانحلال[١١٦].

وقد جهز نور الدين لهذا الغرض حملة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه وأمره بالمسير إلى مصر، فسار أسد الدين على رأس جيش قوي إلى مصر في جمادى الأولى سنة٥٥٩هـ (١١٦٤م)[١١٧].

وقد تبع هذه الحملة عدة حملات استمرت حتى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) وهي السنة التي استقرت فيها الأمور لنور الدين بمصر واستطاع ضمها إلى أملاكه حين قتل آخر وزير فاطمي وهو شاور لخيانته الجبهة الإسلامية وتحالفة في أكثر من مناسبة مع الصليبيين ضد نور الدين، وتولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة مكانه، ولكن هذه المرة باسم الزنكيين وليس الفاطميين[١١٨].

ويعد استيلاء نور الدين على مصر الضربة القاضية التي وجهها للصليبيين، إذ ترتب على ذلك تغير موازين القوى بشكل حاسم لصالح الجبهة الإسلامية، وذلك لاكتمال حركة الحصار الإسلامي حول الوجود الصليبي في المنطقة، وهو الحصار الذي امتد من أقصى شمال الشام حيث توجد إمارة حلب، إلى أقصى الجنوب حيث مصر، كما أن إسهام مصر في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين يعد من أبرز الإيجابيات التي تحققت

للجبهة الإسلامية بقيادة نور الدين، وقد فرضت هذه الحقيقة نفسها على الصراع بين المسلمين والصليبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي فيما بعد(١١٩).

وقد مضى نور الدين بعد ضمه مصر ينازل الصليبيين من مركز قوة حتى استطاع على حد قول سبط ابن الجوزي أن يستعيد منهم نيفاً وخمسين مدينة(١٢٠).

وقد عزم نور الدين بعد ذلك على فتح بيت المقدس وتحريرها من الصليبيين، وأعد منبراً جديداً للمسجد الأقصى إلا أن المنية عاجلته دون تحقيق أمنيته، فحققها خليفته من بعده، وكبير قواده صلاح الدين الأيوبي الذي سار على الخطة التي رسمها رحمه الله، فتحقق له تحرير الأقصى في رجب سنة ٥٨٣هـ (سبتمبر ١١٨٧م) وأقيمت فيه الجمعة خطب فيها من على هذا المنبر(١٢١). ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله: «وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله»(١٢٢).

كل ذلك بفضل من الله عز وجل، ثم بفضل الجهود التي بذلها نور الدين بتوحيد الدولة الإسلامية تحت قيادة موحدة، تلك الجهود التي تكللت بالتوفيق والنجاح في عصور القيادات الإسلامية اللاحقة، والذين تمكنوا ـ بفضل الله عزّ وجلّ ـ من إزاحة العدوان الصليبي، وتصفيته من المنطقة.

## الخاتمة:

وهكذا، فإن هذه هي أهم السمات التي تميز بها الحكم الزنكي في عهد نور الدين محمود، وهي سمات تجسدت فيها عديد من الفضائل والمبادىء التي شكلت شخصية هذا القائد الفذ الذي يمثل الحاكم المسلم الغيور على مصالح أمته، الذي نذر نفسه لخدمتها، والذود عن حماها، وهي مثل وثوابت جديرة بالدراسة والاهتمام.

وقد اتضح من دراسة هذه السمات أن أهم عنصر استمد منه نور الدين مقومات النجاح هو انتماؤه للعقيدة الإسلامية والتزامه كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم منهاجاً يرجع إليه في تدبير أموره.

كما أبرز البحث اهتمام نور الدين بنشر مذهب أهل السنة والجماعة، ونبذ الفرقة بين المسلمين كأساس لتوافق الجهود المبذولة في وحدة الصف الإسلامي أمام العدوان الصليبي على المنطقة.

ومن خلال اهتمام نور الدين بالمؤسسات القضائية، وإقرار العدل بين الرعية أمن الناس على أنفسهم فزاد نتاجهم، وازدهرت إثر ذلك الأحوال الاقتصادية في دولته، مما نتج عنه التفات نور الدين إلى الإصلاحات الداخلية، وإنشاء المرافق العامة في الدولة بمختلف احتياجاتها. وقد جعله ذلك يتفرغ للعمل على توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي. وقد أثمرت تلك الجهود وآتت أكلها في عصور من خَلَفَه من القادة الذين تسلموا قيادة الجبهة الإسلامية من بعده. . .

## الهوامش

١ - هو الملك العادل أبو القاسم نور الدين محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر التركي، ويعرف بالشهيد، ولد في حلب في شوال سنة ٥١١هـ (١١١٨م) ونشأ على الخير والصلاح، ثم آلت إليه بعد وفاة والده سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) فاستقل بها، ومنها انطلقت الدولة النورية إلى كل من دمشق سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)، ثم إلى مصر سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وامتدت سلطته إلى كل من بلاد الشام، والجزيرة والموصل، وديار بكر والمغرب واليمن، وخطب له بالحرمين، وكان مشهوراً بالصلاح والعدل مداوماً على الجهاد مباشراً له بنفسه، موفقاً في حروبه مع الصليبيين، معتنياً بإصلاح شؤون رعيته وبلاده، وكانت وفاته في دمشق في شوال سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) ودفن بها (ابن عساكر: تاريخ دمشق، صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق كملّ نقصها من النسخ الأخرى في كل من القاهرة ومراكش وإستانبول، المدينة المنورة، مكتبة الدار ١٤٠٧هـ ج١٦، ص٢٩٣-٢٩٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٢م، ج٥ ص١٨٤-١٨٨).

٢ - ممن كتب عن شخصية نور الدين بوضوح: ابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن الأثير في التاريخ الباهر، وأبو شامة في كتاب الروضتين، وابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية. ومن المحدثين يأتي في مقدمتهم: عماد الدين خليل في كتابه «نور الدين - الرجل والتجربة» وحسين مؤنس في «نور الدين محمود - سيرة مجاهد سابق».

٣ - ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) ص٢١٥، وقد كتب عن مجموعة من هذه السمات أفاد البحث منها كثيراً.

٤ - من أبرز تلك المصادر: ابن الأثير، التاريخ الباهر؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان؛ ابن العديم، زبدة الحلب؛ أبو شامة كتاب الروضتين؛ وذلك في صفحات عديدة يصعب حصرها هنا.

٥ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، بغداد مكتبة المثنى، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) ص١٧١.

٦ - المصدر نفسه، ١٧١؛ وقد أشار عماد الدين الخليل إلى ذلك في كتابه: نور الدين محمود، وتجربته الإسلامية، دمشق: دار القلم، ط٢. ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) ص١٣٤.

٧ - المصدر نفسه، ١٧١-١٧٢.

٨ - تمت دراسة ذلك بتفصيل في الرسالة التي حصل بها الباحث على درجة الدكتوراه بعنوان (الحياة العلمية في العهد الزنكي) كلية العلوم الاجتماعية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

٩ - الباهر، ص١٦٥.

١٠ - إبراهيم المزيني، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص٤١٠.

١١ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) الجزء الأول، القسم الأول، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٩٥٦م) ص٣٤.

١٢ - عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص١٤٤.

١٣ - المصدر نفسه، ١/ ٣٤.

١٤ - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (القسم الأول من الجزء الثامن) حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (١٩٥١م) ص٣١٣.

١٥ - عماد الدين خليل، نور الدين محمود، ص٢٩.

١٦ - المرجع نفسه، ص٢٩.

١٧ - ضرب الكرة: هي لعبة تشتهر في ذلك الزمان، أقرب ما تكون للعبة البولو (Polo) في زماننا هذا، وتلعب بواسطة الجوكان وهي كلمة فارسية معناها المحجن أو العصا أو الصولجان الذي تضرب به الكرة في أثناء اللعب، وكانت الجوكان عبارة عن عصا مدهونة طولها نحواً من أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد على نصف ذراع (ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: دار إحياء التراث القديم، ١٩٥٣م. ج١، ص٢٦٧، حاشية رقم١؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي، ١٩٦٣م، ٣/ ٣٧٨. ٥/ ٤٥٨).

١٨ - البنداري: سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني. ق١، تحقيق: رمضان ششن. بيروت: دار الكتاب الجديد (١٩٧١م) ص٧٠.

١٩ - التاريخ الباهر، ص١٦٨-١٦٩.

٢٠ - الجمام، بالفتح، الراحة. وجمّ الفرس ترك فلم يركب؛ فعفا من تعبه وذهب إعياؤه(ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ١/ ٦٨٦).

٢١ - ابن الأثير: التاريخ الباهر. ص١٦٤-١٦٥. وقد أشار عماد الدين خليل إلى هذه المعاتبة ص٣٣.

٢٢ - عماد الدين خليل، نور الدين، ص٣٣.

٢٣ - أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق: قاسم السامرائي، ط١، الرياض: دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) ص٢٠٥-٢٠٦.

٢٤ - التاريخ الباهر، ص١٦٣.

٢٥ - ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، بيروت: دار الكتاب الجديد(١٩٧١م) ص٦٨-٦٩. وقد تحدث عماد الدين خليل عن ذلك في كتابه: نور الدين محمود، ص٦٩.

٢٦ - المصدر نفسه، ص٦٩.

٢٧ - أبو شامة، الروضتين، ١/ ٣٠.

٢٨ - المصدر نفسه، ص٣٠. والعبارة ركيكة، وفيها أخطاء لغوية وهي هكذا في المصادر المختلفة مما يدل على أنها نقلت نقلاً أميناً من المصدر الذي اعتمد عليه.

٢٩ - عماد الدين خليل، نور الدين محمود، ٥٣-٥٤.

٣٠ - البنداري: سنا البرق الشامي، ص١٢١.

٣١ - عماد الدين خليل، نور الدين محمود، ص٥٣.

٣٢ - سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/ ٢٩٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/ ٢٥٥-٢٦١.

٣٣ - ابن الأثير، الباهر، ١٢٠.

٣٤ - كتاب الروضتين، ١/ ١١٩-١٢٠.

٣٥ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ط ٤، بيروت: دار الكاتب العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢/ ٤٧٩-٤٨١.

٣٦ - ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٥٤م) ج ٢، ص٢٤٥.

٣٧ - ابن القلانسي: تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار إحسان، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) ص٤٥٠.

٣٨ - ابن القلانسي، المصدر نفسه. ٥٣١هـ؛ ابن العديم، المصدر السابق، ٢/ ٢٦١.

٣٩ - ابن القلانسي، المصدر نفسه. ص٤٤٥؛ سبط ابن الجوزي، مصدر سابق. ٨/ ١٩١.

٤٠ - زبدة الحلب، ٢/ ٢٨٩-٢٩٠.

٤١ - ابن القلانسي، المصدر نفسه، ص٥٣١؛ ابن الأثير، الباهر، ٣٤-٣٥.

٤٢ - له ترجمة موسعة عند ابن الجوزي في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) ١٠/ ٢٠٩؛ وابن خلكان في: وفيات الأعيان، ٥/ ١٤٣-١٤٥.

٤٣ - ابن الأثير، الباهر، ٩٧.

٤٤ - المصدر نفسه، ٩٧.

٤٥ - كتاب الروضتين، ١/ ١٢٤.

٤٦ - ابن الأثير، الكامل، ٩/ ١٠٨؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ٨/ ٢٨١.

٤٧ - ابن الأثير، الكامل، ٩/ ١٠٨.

٤٨ - السبكي، طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) ٤/ ٧٤.

٤٩ - ابن خلكان، وفيات الأعيان. ٣/ ٥٣-٥٦؛ السبكي، السابق، ٤/ ٢٣٧.

٥٠ - البنداري، سنا البرق الشامي، ص١٢٠-١٢٢.

٥١ - العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، تحقيق: شكري فيصل دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م)، ص-١٢٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية ط٢، بيروت، مكتبة المعارف، (١٩٧٧م)، ١٤/ ٣١.

٥٢ - سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/ ٢٨٠-٢٨١.

٥٣ - التاريخ الباهر، ١٧٣.

٥٤ - المصدر نفسه، ١٧٣.

٥٥ - كتاب الروضتين، ١/ ٤١-٤٤.

٥٦ - حسين مؤنس، نور الدين زنكي سيرة مجاهد صادق، الدار السعودية للنشر والتوزيع. ط٢، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) ص٤٠٥.

٥٧ - كتاب الروضتين، ١/ ٣٣، وقد كتب الباحث عن هذا الموضوع بتوسع في «الحياة العلمية في العهد الزنكي» فأكتفي هنا بتسجيل ما يتصل بموضوع البحث.

٥٨ - ابن القلانسي، مصدر سابق، ص٤٦٨.

٥٩ - أبو شامة، الروضتين، ١/ ٤٤١.

٦٠ - ابن الأثير، الباهر، ص١٦٥.

٦١ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة جـ١ ق١. «قسم حلب» تحقيق: دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ص١٢١.

٦٢ - ابن الأثير، الباهر، ١٧٢؛ أبو شامة، الروضتين، ١/ ٢٣.

٦٣ - تاريخ دمشق (مخطوط) ١٦/ ٢٩٣.

٦٤ - عماد الدين خليل، نور الدين محمود، ص٨٢٠٧٥.

٦٥ - تاريخ دمشق (مخطوط) ١٦/ ٢٩٤.

٦٦ - ابن الأثير: التاريخ الباهر. ص١٦٣.

٦٧ - ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٢٥.

٦٨ - ابن الأثير، الباهر، ١٦٨.

٦٩ - أبو شامة، الروضتين، ١/ ٣٣.

٧٠ - عماد الدين خليل، نور الدين محمود، ص٧٧

٧١ - أبو شامة، الروضتين، ١/ ١ص ٣٣.

٧٢ - الباهر، ١٦٧.

٧٣ - نفسه، ١٦٧.

٧٤ - ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص٢٤٩.

٧٥ - نور الدين، ص٤٠٠.

٧٦ - عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص٩٥.

٧٧ - والتناء عند أهل اللغة هم المقيمون في البلاد من تنأ بالمكان يتنأ أي أقام وقطن. (ابن منظور، لسان العرب، ١/ ٤٤٩-٤٥٠)

٧٨ - تاريخ دمشق، ص٥٠٥-٥٠٦. وقد ورد هذا عند عماد الدين خليل في نور الدين، ص٩٦.

٧٩ - أبو شامة، الروضتين، ١/ ٣٨-٣٩.

٨٠ - البنداري، مصدر سابق، ١٤٣. ويرجح عماد الدين خليل أن المقصود بالعبارة الأخيرة فريضة الزكاة لتوضيح التزام نور الدين وعدم تساهله في المطالبة بهذه الفريضة المهمة. (نور الدين محمود، ص١٠٢).

٨١ - الباهر، ص١٦٦.

٨٢ - الروضتين، ص٣٧-٣٨.

٨٣ - وكانت وفاة نور الدين محمود رحمه الله في شوال سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م).

٨٤ - رحلة ابن جبير، ببيروت: دار صادر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م)، ص٢٢٦-٢٢٧.

٨٥ - المصدر نفسه، ص٢٣١.

٨٦ - نفسه، ٢٣١.

٨٧ - نور الدين، ص٤٠١ - ٤٠٢.

٨٨ - الرحلة، ٢٥٠.

٨٩ - ابن الأثير، الباهر، ١٧١؛ أبو شامة، الروضتين، ١/ ٢٢.

٩٠ - الروضتين، ١/ ٢٣.

٩١ - ابن الأثير، الباهر، ١٧٠.

٩٢ - سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/ ٣٨٥؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة «قسم دمشق» نشر وتحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م) ص٢٠٥. وقد تمت دراسة ذلك بتفصيل في (الحياة العلمية في العهد الزنكي)، فآثرت عدم تكرارها هنا، وإنما اكتفيت بما يتناسب مع حاجة البحث.

٩٣ - الرحلة، ص٢٤٨.

٩٤ - ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص٢٥٧.

٩٥ - عماد الدين خليل، نور الدين محمود، ص٢٩.

٩٦ - أبو شامة، الروضتين، ١/ ٢٧.

٩٧ - الكواكب الدرية، ص-٤٠-٤١.

٩٨ - مرآة الزمان، ٨/ ٣٠٧.

٩٩ - عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص٣١.

١٠٠ - ابن الأثير، الباهر، ص١٦٩.

١٠١ - عماد الدين خليل، نور الدين، ص٣١.

١٠٢ - الباهر، ص١٦٩.

١٠٣ - نور الدين محمود، ص٣٨٢ - ٣٨٣.

١٠٤ - الباهر، ١٦٩.

١٠٥ - محمود فايز السرطاوي، نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، عمّان: دار البشير، (١٩٩٠م) ص١٤٨-١٤٩.

١٠٦ - ابن الأثير، الكامل، ص١٧٠.

١٠٧ - حسين مؤنس، نور الدين، ص٣٨٥.

١٠٨ - الباهر، ص١٧١.

١٠٩ - ابن الأثير، الباهر. ٥٣؛ أبو شامة، الروضتين، ١/ ٧٦.

١١٠ - حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة. دار نشر الثقافة(١٩٧١م) ١/ ٢٥٣.

١١١ - ابن الأثير، الباهر. ٣٧-٣٨؛ أبو شامة، الروضتين، ١/ ٧٧-٧٨.

١١٢ - عماد الدين خليل، نور الدين، ص٤.

١١٣ - ابن القلانسي، مصدر سابق، ٥٠٤ - ٥٠٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٩/ ٤٥ - ٤٦.

١١٤ - حامد غنيم، مرجع سابق، ١/ ٢٩٠-٢٩١.

١١٥ - حامد غنيم، مرجع سابق، ٢٤٥.

١١٦ - ابن الأثير، الكامل، ٩/ ٨٤.

١١٧ - ابن الأثير، الباهر، ١٢١.

١١٨ - ابن الأثير، الكامل، ٩/ ٩٩-١٠٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ١/ ١٦١-١٦٢.

١١٩ - حامد غنيم، الجبهة الإسلامية، ١/ ٢٩٥-٢٩٦، ٢٧٠.

١٢٠ - مرآة الزمان، ٨/ ٣٠٥.

١٢١ - ابن الأثير، الكامل، ٩/ ١٨٥؛ ابن كثير،البداية والنهاية، ١٢/ ٣٢٦.

١٢٢ - الكامل، ٩/ ١٨٥.

# المصادر والمراجع

## أولاً المصادر :

**ابن الأثير:** عز الدين على بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

١- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

٢- الكامل في التاريخ، ط٤، بيروت. دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

**البنداري:** قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (ت: ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).

سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني. ق١، تحقيق: رمضان ششن. بيروت: دار الكتاب الجديد (١٩٧١م).

**ابن جبير:** أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت: ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

**ابن الجوزي:** جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م).

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م).

**ابن خلكان،** شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (١٩٧٢م).

**سبط ابن الجوزي**، شمس الدين أبو المظفّر يوسف بن قزاوغلي (ت: ٦٥٧هـ/ ١٢٥٦م).

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، الهند، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).

**السبكي**، طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).

**أبو شامة**، شهاب الدين، أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت: ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١ تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، ق١ نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٩٥٦م)، ج٢، مطبعة وادي النيل، القاهرة (١٢٨٨هـ).

**ابن شداد**، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت: ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م). الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق١ «قسم حلب» تحقيق: دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية؛ جـ٢، ق١ «قسم دمشق» نشر وتحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م).

**ابن العديم**، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م).

زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٥٤م).

**ابن عساكر**، الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت: ٥٧١هـ/ ١١٧٦م).

تاريخ دمشق، (مخطوط). صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق. كمل نقصها من

النسخ الأخرى في كل من القاهرة ومراكش، وإستانبول، المدينة المنورة، مكتبة الدار (١٤٠٧هـ).

**العماد الأصفهاني،** أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن أُله (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م).

خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، تحقيق: شكري فيصل دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م).

**ابن قاضي شهبة،** محمد بن أبي بكر بن أحمد الدمشقي (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).

الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، بيروت، دار الكتاب الجديد، (١٩٧١م)

**ابن القلانسي:** أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي (ت: ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).

تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار إحسان، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

**القلقشندي،** أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

صبح الأعشي في صناعة الإنشاء نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي، (١٩٦٣م).

**ابن كثير،** أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

البداية والنهاية، ط٢، بيروت، مكتبة المعارف (١٩٧٧م).

**ابن منقذ،** الأمير أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي (ت: ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م).

كتاب الاعتبار، تحقيق: قاسم السامرائي، ط١، الرياض: دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

**ابن منظور،** أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت: ٧١١هـ/ ١٣١١م).

لسان العرب، القاهرة، دار المعارف (د.ت).

**ابن واصل،** جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت: ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م).

مفرح الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة (١٩٥٣م).

المعرفة، ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م).

## ثانياً: المراجع :

- **إبراهيم بن محمد المزيني،** «الحياة العلمية في العهد الزنكي» رسالة دكتوراه لم تنشر، قسم التاريخ والحضارة، كلية العلوم الاجتماعية / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤١٠هـ (١٩٨٩م).

- **حامد غنيم أبو سعيد،** «الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية»، القاهرة. دار نشر الثقافة (١٩٧١م).

- **حسين مؤنس،** «نور الدين محمود ـ سيرة مجاهد صادق»، ط٢، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

- **عماد الدين خليل،** «نور الدين محمود الرجل والتجربة». دمشق، بيروت: دار القلم ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

- **ماجد عرسان الكيلاني،** «هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس». جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

- **محمود فايز السرطاوي،** «نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية»، عمان: دار البشير، (١٩٩٠م).